مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 09 عدد: 01 السنة 2023 E-ISSN:2588-2325

من التنظير حول التراث الى النظرة البراغماتية للتراث قراءة أنثروبولوجية لواقع وطريقة تثمين التراث في الجزائر –الأوراس نموذجا-

From theorizing about heritage to pragmatic view of heritage (An anthropological reading of the reality and method of valuing heritage in Algeria- Auras as a model-)

أحمد بوطبة*، جامعة محمد خيضر-بسكرة ahmed.boutobba@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال:2023/06/07 تاريخ القبول: 2023/06/22 تاريخ النشر: 2023/06/30

ملخص:

تعرف منظمة اليونيسكو التراث بانه جملة المقتنيات المادية والغير مادية لأمة ما ، والتي تنتقل من جيل الى جيل مشكِلة بذلك جزء من هويتها الجماعية. هذا المفهوم اخذ شكله النهائي مع انتقال الغرب الاوروبي من الملكية الى مركزية العموم والشعب ، والأزيد من ذلك اصبح هذا التراث جزء من السيرورة الاقتصادية لهذا العالم . بالمقابل مازال التراث ينظر اليه في الجزائر على انه ترف نخبوي ولايعني المعيش اليومي للأناس البسطاء . من هنا تنطلق اشكالية الورقة والخاصة بكيفية تثمين التراث ليصبح موردا اقتصاديا ، والانتقال من مرحلة التنظير النخبوي الى الهم اليومي للجزائري العادي ، وهذا عبر منهج الاتنوميتودولوجيا الذي يغوص في قصص الناس وحكاياهم عبر مقابلات حرة غير قصدية في منطقة الأوراس شرق الجزائر. ان الهدف من وراء هذه الورقة البحثية هو المساهمة في اثارة النقاش من اجل ربط الجوانب الأكاديمية باقتصاد السوق وسيرورته.

الكلمات المفتاحية: . التراث، التنظير، البراغماتية، تثمين التراث، الأوراس.

* المؤلف المرسل

Abstract :

UNESCO defines heritage as the sum of the tangible and immaterial holdings of a nation , which are passed on from generation to generation , forming part of its collective identity. This concept took its final form with the transition of the European West from monarchy to the people. This heritage became part of the economic process of this world. On the other hand, heritage is still seen in Algeria as an elitist luxury and does not mean the daily living of simple people. From here stems the paper's problem of how to value heritage to become an economic resource, and to move from the stage of elitist theorizing to the daily concern of the ordinary Algerian, and this is through the methodology of ethnomithodology that dives into people's stories through free, unintentional interviews in the Auras region east of Algeria . This research paper aims to contribute to sparking discussion in order to link the academic aspects to the market economy and its process.

Keywords: heritage, theorizing, pragmatism, valuation of heritage, Auras .

مقدمة :

كان للتحولات السياسية التي شهدها العالم منذ القرن التاسع عشر دور في بروز رؤى ومفاهيم جديدة جعلت من العامة مركزا محوريا لجل المقاربات الفكرية والوجودية ، تجلى ذلك مثلا في النظرة الى التراث وكيفية التعاطي مع زواياه المختلفة ، حيث اصبح مرادفا لهوية الامم وعنوانا لقدرتها على مواجهة تحديات الحاضر والنظر الى المستقبل ، لتتحول الكنائس ، المعابد ، المساجد ،الساحات...الخ الى مصدرا وجب المحافظة عليه ، لانه يمثل روح الامة ودليلا على امتداد جذورها في التاريخ. والازيد من ذلك وكنتيجة لتغير في المنطق الاقتصادي لقوى الغرب بعد الحرب العالمية الثانية ، انتقل التراث المادي من مجال متعلق بالهويات وبالشأن الثقافي الخالص الى مجالات قريبة من المنطق الاقتصادي حيث الربح والخسارة. نتحدث هنا عن ولوج التراث لميادين الهم الانساني واليوميات المباشرة مثل قطاع السياحة الذي يتعدى سياسات الدولة الى الآناس البسطاء. ربما يقول قائل اين عالم الشرق من كل هذه التغيرات ؟ للاسف كل هذه التطورات التي ذكرناها آنفا كان فضاءها الرئيس عالم الغرب بحكم الظروف التاريخية التي وضعته في اريحية سواء على مستوى الفكر ، السياسة او الاقتصاد . بالمقابل بقى الشرق حبيس ماضيه بمفهومه السلبي ، وازداد سوءا

مع السيطرة الغربية التي جعلته اسيرا لرغباتها التوسعية ،مما رهن طموحاته وابطأت من قدرته على مواكبة الحاضر .مثلما حصل في الجزائر التي ورغم غناها التراثي الا انها لم تستطع ان تجعل السياسة التراثية في خدمة الهم الاقتصادي ليدرك من خلالها الانسان الجزائري اهمية المحافظة على التراث باعتباره جالب لقيمة مضافة ، لذا اتت جل محاولات النهوض بالتراث على استحياء وكأنها تقليد لما هو حاصل في الغرب وكفى.

المتتبع للسياسة التراثية للجزائر بعد الاستقلال يدرك حجم الترسانة النظرية والقانونية التي اعطت للتراث مكانة ، لكنها بالمقابل جعلته هم نخبوي وعزلته عن الجماهير التي نظرت الى التراث باعتباره شأن بعيد ولايلامس حاجاتها اليومية ، رغم الغنى الذي يميز مختلف المناطق كالاوراس مثلا الذي جمع الجغرافيا والتاريخ وبتفاعل انساني رهيب كان نتيجته فسيفساء تراثية تنتظر فقط مقاربة تجعل منه موردا يساهم في الاقتصاد الوطني. من هنا جاءت االاشكالية و الخاصة بالميكانيزمات التي تستطيع ان تنقل التراث من ترف نخبوي الى هم يومي يرى فيه الانسان حلا لبعض مشاكله. وهذا عبر منهج الاثنوميتودولوجيا الذي له القدرة على النفاذ الى المعيش اليومي للأناس البسطاء ، ومعانقة همومهم الحياتية ، بالاتكاء على تقنية المقابلة الحرة التي تستنطق العمق ، وتفكك المعاني الكبرى التي تضفيها الجماعات الانسانية المختلفة على وجودها ، لقد اتت هذه المقابلات غير قصدية ، كما انها لم تول عناية كبرى للعدد ، لأن الانتروبولوجيا اولا وآخرا هي علم كيفي يبحث عن المعنى ولايبحث عن الحقيقة . ان الهدف من وراء هذه الدراسة المتواضعة هو المساهمة ولو بنزْر يسير في سيرورة التنمية الاقتصادية عبر ربط الجوانب النظرية بالسوق وبراغماتيته الواقعية.

1- حول التراث :

1.1تاريخ الاسم :

الدارس لتاريخ التراث يدرك جملة التحولات التي تعرض لها هذا المفهوم منذ القديم سواء في فضاء العالم الغربي او في منطقة الشرق ، فبتتبع لتاريخ الاسم في اللغات الغربية نعي بسهولة حجم التغير الذي ضرب هذا المفهوم في العمق ، ف Patrimoine وPatrimony مشتق من الكلمة اللاتينية Patrimonum التي بدورها تحيلنا الى Parer الذي يعني بدوره Père او "الاب" ومن ثمة فالمفهوم الاول متعلق بتلك الممتلكات المادية التي يتركها الاب لذريته بعد وفاته . وبالتالي فالصبغة القانونية هي التي حددت طبيعة المفهوم وادخلته الى حقل الممارسات اليومية بتعقيداتها المختلفة . ان مانفهمه الآن من كلمة "تراث" لم تكن مطروحة تماما في بدايات تشكل هذا المصطلح في عالم الغرب ,Candau)

(2005, pp. 30-31، وهي نفس الملاحظة التي نجدها عند اقتفاءنا لاثر كلمة "تراث" في اللغة العربية ، نجد في القرآن الكريم "...وتأكلون التراث اكلا لما ، وتحبون المال حبا جما" (الكريم، الآية 19)رأى المفسرون بان التراث في هذه الآية يقصد به "اكل الناس الميراث اكلا لما ، يعني اكلا شديدا لاتتركون منه شيئا ،وهو من قولهم : لممت ماعلى الخوان اجمع ، فانا المه لما : اذا اكلت ماعليه فأتيت على جميعه " (الطبري، 2001، صفحة 380) جاءت كلمة التراث هنا في استمرارية مع ذلك الاستعمال الذي دأب عليه الغربيون في تعاملاتهم المختلفة والتي لم تخرج من اطار الملكية العينية وانتقالها من الاب الى الابناء والاحفاد. وهو السياق الذي عرف فيه ابن منظور في لسان العرب المحيط كلمة "تراث" حيث نجد "لفظة تراث في اللغة العربية مشتق من مادة "وَرَثٌ" وتعني مايرثه ابن من ابيه من مال وحسب ، او حصول متأخر على نسب مادي او معنوي ممن سبقه" (منظور، 1992، الصفحات 202-292) مادة (ورث)، ص 292-202. وسيبقى هذا المعنى هو الذي يحدد اتجاهات التراث في العالم العربي الى وقت قريب . نعود الان الى الغرب الاوروبي لنستكمل مسار تشكل مصطلح التراث ، فاغلب المختصين يرون في ان المعنى الذي نفهمه الآن من كلمة "تراث" هو حديث ويعود الى عهد الثورة الفرنسية سنة 1790م "عندما وجه فرونسوا ريتود Francois Ruthod عريضة الى الجمعية التأسيسية يحاجج فيه على اهمية ان تصبح الممتلكات الفردية لفئة المهاجرين تراث وطني" (D.Poulot, 2006, p. 48)

نبقى دائما مع مسارات تشكل هذا المصطلح في البيئة الغربية حيث نجد ذكر لفترة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين باعتبارها شكلت تبلور لكلمة "التراث" واستعمالها بالصورة المجازية اين تحيلنا الى ميادين الفكر ، الروح والعبقرية الإنسانية ،كما ينقل لنا مثال عن تغلغل التراث في ميادين الملكية العامة وذلك في Dictionnaire de la langue francaise (1873-1874) ل Emil Littré حيث نقرأ هذه الكلمات " كل اكتشاف علمي هو بالضرورة تراث لكامل الامم" (E littré de L'académie francaise, 1873, p. 556).اننا هنا في صلب المقاربة التراثية للاشياء المتعلقة بالقيم التي تتسامى عن الواقع المادي وتتماهى مع عالم المجردات . الحرب العالمية الاولى سنة 1914م وماحملته من اهوال ومآسي عززت الشعور القومي وقربت اكثر الشعوب من المظاهر المادية لاوطانها مثل القصور ،المعابد ، الكنائس ، الجسور...الخ ، انها لم تعد كالسابق ، انها تجسد منذ اللحظة ماضي الامة وروحها التليد . وسيتوسع مع الزمن مجالات الاستعمال لكلمة "التراث" ليشمل كل الاشياء المادية (المباني، الجسور ، اللوحات الفنية ، المناظر الطبيعية ، الالبسة ....) والاشياء اللامادية او مايعرف بالتراث اللامادي والذي عرفته منظمة اليونيسكو بانه "جملة التصورات ،

الممارسات ، المعتقدات ،الاديان ، التقاليد الشفهية ، الامثال الشعبية ...الخ التي تمارس على نطاق الجماعة الإنسانية والمهددة بالزوال.

وجبت الاشارة الى ان افرازات الحرب العالمية الثانية سواء في اطارها العسكري او السياسي هي التي اعطت سلطة للتراث ووسعت من مجاله ،نتيجةلتلك السجالات التي صاحبتالعمليات العسكرية –خاصة الالمانية منها- في تماسها المباشر مع الارث التراثي . نتحدث هنا مثلا على العملية الالمانية في فرنسا والنقاش الذي دار حولها والاستسلام الذي صاحبه الذي امضاه ا"لماريشال بيتان" بحجة المحافظة على الارث الثقافي الفرنسي(D.Fabre , A.Daniel , 2010, p. 76) .هذا الارث الذي توسع مفهوم ليشمل كل الاشياء المادية في تفاعلاتها الزمنية المختلفة مع الجماعات البشرية ، انها لم تعد محصورة في مجال محدد بل اصبحت شاملة لكل المجالات الانسانية ،بل الكثرة هي دلالة واضحة على اصالة الامة وقدرتها على مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل . اشرنا الى افرازات الحرب ودورها في توسع مفهوم التراث ، نقصد هنا بصورة خاصة الافرازات المؤسساتية الثقافية مع تأسيس "منظمة اليونيسكو "(منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم) كأحدى المنظمات الدولية التي تعنى بالشأن الثقافي مدفوعة بسياق عالمي تميز بالرغبة بالمحافظة على الارث الانساني واعتباره شأنا جامعا وضامنا للسلم العالمي. ان "منظمة اليونيسكو" هي التي اعطت للتراث صبغة مؤسساتية ومنحته رأسمال رمزي اتكأ عليه ليصبح شأنا للدول ومصدرا للاعتزاز والفخر، والزمت اعضاءها على الايفاء بالتزاماهم المالية الكفيلة برسم الاستراتيجيات المستقبلية للسياسة التراثية.

1-2التراث باعتباره قضية دولة :

" يعرف التراث تقليديا على انه مايبقى من الماضي ماثلا في الحاضر الذي انتقل اليه ويستمر مقبولا ممن آل اليهم وفاعلا فيهم لدرجة تجعلهم يناقلونه بدورهم (وآخرون، 2011، صفحة 366)على مر الأجيال " نجد هذه العبارات في الصفحة 366 من معجم اتنولوجيا وانتروبولوجيا لبيار بونت وميشال ايزار وهي تحمل دلالة على البعد الزمني الذي يعطي قيمته للتراث ويجعل منه منتجا هوياتيا للجماعات البشرية المختلفة . ورغم قدم المعايشة اليومية للانسان وتفاعلاته المختلفة مع البقايا التي خلفها اجداده ، الا ان وعيه بقيمة وضرورة المحافظة عليها هي وليدة مرحلة ادراك الانسان لتملكه للشأن العام ، وتشابك هذا الشأن مع حياته الخاصة ، نتكلم هنا بصورة واضحة عن تلك التحولات التي شهدتهااوروبا بخروجها من مرحلة العصور الوسطى وانتقالها الى الفترة

الحديثة وتبدل مركز الثقل من الملكية والنظام الكنسي الى الجمهورية وتأليه العقل حيث الشعب مصدر لكل السلطات وملهما لكل المعاني التي تجعل من فكرة العيش المشترك فعلا ممكنا.

ومؤرخو الشأن التراثي في العالم يكاد يتفقون على غياب شبه كلي للوعي بالتراث باعتباره نتاج عبقرية الجماعة على مر تاريخها بتفاعلاتها المختلفة مع البيئة . القصد من هذا الكلام هو اظهار تلك الهوة الموجودة بين التراث باعتباره شأنا ماديا يشكل جزء من الفضاء الفيزيائي والاجتماعي ، والفاعلون الذين لم يدركوا قيمة ودور التراث في خلق هوية الجماعة واعطاء بعدا لوجودها ، وهذا يعود الى غياب الدعائم الفكرية ، وكذلك طبيعة الانساق الثقافية التي كانت مضادة للأسس التي تربط بين ماضي الجماعة وحاضرها. وجب التأكيد على تشابك ميلاد مفهوم التراث وتطوره مع بروز الدولة الوطنية وعلاقتها بفكرة المواطنة ، رغم ان البدايات كانت مرتبطة نوعا ما بطبقات اجتماعية دون غيرها ،وهذا شيء طبيعي بالنظر الى السياق العام الذي كان يلخص مفهوم الامة في الملك ، الحاشية والطبقة الدينية والارستقراطية.

Jean –Pierre Babelon و André Chastel وهما كاتبين مختصين في سياسات التراث يرون بأن هذا المفهوم ولد في رحم المؤسسة الدينية والمؤسسة الملكية ، وينقلون لنا امثلة عن المحتويات التي كانت في صلب الاهتمام مثل البسة القساوسة ومقتنياتهم ، المجموعات الخاصة بالمكتبات الملكية ، ارشيف المؤسسات الدينية والملكية(André Chastel, 1994, p. 142) . ان هذا الاهتمام لايعني بان منطق المنفعة العامة هو الذي يحرك هم المحافظة على الاشياء التي بدت ثمينة في حينها ، بل ان هذا الاهتمام وليد الحاجات الفردية لاشخاص يشعرون بتميز مايملكونه. والازيد من ذلك فمنطق الملكية كان في تضاد مباشر مع فكرة المحافظة على التركة العامة لدرجة اقدام بعض الملوك على تدمير بعض القصور التاريخية وتسويتها بالارض لاغراض شخصية متعلقة بتوسعة المساكن او جعلها تتماشي وروح العصر.

نفس الامر تعلق بالمؤسسة الدينية التي قامت بتدمير عدد لابأس به من المواقع الاثرية باعتبارها اوثان (Tornatore, 2010, p. 55). الهم التراثي سيأبدأ في في احتلال مكانة هامة مع بروز مفهوم الدولة الوطنية ،والانتقال من الرعية الى فكرة المواطنة التي اخذت على عاتقها مهمة التأسيس للعيش المشترك الذي يجعل من كل المواطنين متساوين في الحقوق والواجبات انطلاقا من ان الدولة كيان دوره الحفاظ على التركة العامة ذات البعد المادي لكن في نفس الوقت لها مهمة ربط الماضي بالحاضر والمستقبل. بعبارة اخرى ان فكرة الاهتمام بالتراث لايمكن فهمها الا في نطاق الانتقال من فكرةالامبراطورية الى الدولة الوطنية التي اخذت شكلها مع نهاية القرن الثامن عشر مع ثورة الشعب

ضد اسرة آل بوربون ." جرد مقتنيات الكنيسة والنبلاء الذي شرع فيه ابتداء من فيفري 1794م اسس لمبدأ جمع التحف الفنية لاهميتها بالنسبة للامة وقيمتها التاريخية والجمالية " (Bady, 1994, p. 115). ان فكرة جرد المقتنيات هي التي ستساهم في اتساع المفهوم التراثي ليشمل مجالات كانت بعيدة عن كلمة التراث ، انه لم يعد مباني وفقط بل سيشمل الوجهة الخارجية كما التحف التي يحويها الداخل مثل اللوحات الفنية ، المنحوتات ،المنقوشات ...الخ .

شيء آخر وجب الاشارة اليه هو ان فكرة الجرد في اساسها مرتبطة بارادة الدولة في جعل التراث جزء من سياساتها ، وبالتالي سننتقل مع الثورة الفرنسية من التراث بمفهومه المرتبط بخصوصية بعض الافراد والجماعات الى مفهوم شامل للتراث يأخذ بعين الاعتبار ربط الماضي بالحاضر كما الملكية المشتركة لتحف الامم . انها ترجمة واضحة لارادة الشعوب في تملك ماضيها وحاضرها ، كما انها تقف في تضاد رئيس مع النظام الملكي البائد من جهة ، والكنيسة بمرجعياتها الاخروية من جهة اخرى ، فهذه التحف والمقتنيات لم تعد تنتمي الى فئة بعينها بل هي تنتمي الى كامل الشعب ومن حق الدولة بل من واجبها السهر على الحفاظ على تركة الامة. حتى وان كان النظام الفرنسي بعد الثورة الفرنسية وحتى بداية القرن العشرين لم يول عناية كبرى للمقتنيات الدينية انطلاقا من مواقف ايديولوجية ورؤية خاصة الى الدين حملته الثورة الفرنسية باعتباره يمثل اعاقة للتطور ومضاد للانسان كمركز للكون. هذا الاهمال "المؤدلج" دفع بعض المفكرين الى دق ناقوس الخطر والدفاع عن هذه المواقع الدينية التي تنتمي الى التراث الفرنسي ، وحتى نواب العاصمة الفرنسية باريس انبروا للدفاع عنها "وأظهروا انزعاجهم من الخطر الذي يهدد الكنائس " (A.riegal, 1984, p. 44).

ربما يقول سائل هل مفهوم التراث مرتبط بفرنسا فقط ؟ واين العوالم الاخرى مما يحصل في عالم التراث ؟ كما رأينا في السابق بان التراث وتطور مفهومه لايمكن تتبعه خارج سياق الدولة وانظمتها السياسية ، نقصد هنا العلاقة بين النظام ومكانة الشعب في تمثلاته ، لان التراث في اساسه هو تعزيز لفكرة العامة مقابل فكرة الملك والحاشية. ركزنا على فرنسا باعتبار ان ثورة الشعب على اسرة ال بوربون كانت جذرية ، لذا اتت جل الخطوات لشرعنة عمل الشعب وكل مايتعلق به، دون ان ننسى مساحة الديموقراطية المكفولة في الانظمة الجمهورية والديموقراطية حيث تكون حرية النقاش ورفض وانتقاد السياسات متاحة للنخب كما العامة.

أما في بريطانيا على العكس الفاصل لم يمكن واضح بين الاسرةالملكية من جهة والشعب من جهة اخرى ، وهذا بحكم التحولات التاريخية التي لم تكن جذرية بل كانت على مراحل (منذ 1648م)

مما جعل الملكية الخاصة للعائلة المالكة تتماهى والملكية العامة للشعب ، وستنتظر بريطانيا الى غاية القرن العشرين لنرى اهتمام فعلي وجاد بالتراث انطلاقا من التغيرات التي حدثت في العالم. كما ان الروح الاستعمارية التي حكمت بريطانيا "الامبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس" اعاقت رسم استراتيجيات لتطوير مفهوم التراث نتيجة لوجود اولويات اخرى للساسة البريطانيين .

الاحداث الكبرى التي شهدها العالم في القرن العشرين سواء في بعدها المادي او الغير المادي اعطت زخم لاهتمام النخب الغربية بالتراث وجعله في قلب المعادلات السياسية والفكرية ، كما ربطته بروح الامة وسر وجودها ، خاصة وان الدمار الذي تعرضت له خاصة المواقع الاثرية اجبرت الانظمة السياسية على التعامل بشكل اخر مع كل مايتعلق بالتراث الثقافي(Denis, 1998, p. 71) ، وستأتي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لتضع اللبنات المؤاسساتية للحفاظ على التركة التاريخية ، كما برزت مقاربات ورؤى جديدةاخرجت التراث من سياجه القبلي الضيق لتضعه في صلب اهتمامات الانسانية الجامعة ، وساعد في كل هذا سيطرت المفاهيم التي استخدمها دول الحلفاء للانتصار على النازية ، انها مفاهيم مرتبطة بالانسان بغض النظر عن العرق ، الدين ، اللون ...الخ ، وهي الخزانة النظرية التي بنت عليها الانظمة العرقية مشروعها.

بمعنى اخر فالسياق الذي انتصر به الحلفاء على ادولف هتلر ، والخطاب المستعمل هو الذي ساهم في تطور النظرة الى التراث بعيد الحرب ،وجعله مرادف لقيم السلام ، الشعار الذي رفعته الدول الكبرى وحاولت تجسيده في ارض الواقع مع الامم المتحدة والمنظمات التابعة لها مثل (منظمة التربية والعلم والثقافة –(UNESCO) التي تأسست سنة 1945 م وكان من مبادئها الاساسية صون التراث والمحافظة عليه ، ورغم انها لاتملك سلطة الجبر الا انها استطاعت ان تحقق تقدما كبيرا في هذا الشأن نتيجة التطور الذي مس مناحي الحياة ،ومحاولة النخب السياسية للعالم عدم تكرار اهوال الحربين.

والدارس لتطور نشاطات اليونيسكو يدرك حجم العمل الذي قام به الخبراء في سبيل تحقيق الاهداف التي وجدت من اجلها ،فهي لم تكتف بالعمل التحسيسي بل اجبرت الدول المحتلة على ضرورة حماية الممتلكات الثقافية في الدول المستعمّرة ،"حيث نقرأ في القانون الدولي الانساني البروتوكول الاول التابع لاتفاقية لاهاي 1954م لحماية الممتلكات الثقافية تحت الاحتلال:

1- منع تصدير الممتلكات الثقافية الموجودة على الاراضي المحتلة

2- حراسة الممتلكات في حالةنقلها من الاراضي المحتلة

3- تسليم الممتلكات الثقافية عند انتهاء العمليات الحربية (جوني، 2019، صفحة 10).

وقد ساهمت وسائل الاعلام ووعي النخب الثقافية في التعريف بالمنجزات وتقديمها على انها ملك للانسانية الجامعة . ان الزمن الذي تتحرك فيه اليونيسكو يجعل فكرة التراث مجسدة في مشاريع ،والازيد من ذلك تصبح جزء لايتجزء من الهم الوجودي للدولة ، فالترف الفكري الذي كان ينظر به الى التراث لم يعد موجود، بل هو نسق في بنية الدولة ووظائفها المختلفة.

2- الجزائـــر والسياســـة التراثيـــة :

جاء بيان اول نوفمبر 1954م كمؤسس لأولويات الجزائر في الثورة وبعد الاستقلال ، فركز الى جانب الابعاد السياسية على البعد الهوياتي للشعب الجزائري من لغة ودين وارتباطات ثقافية مع الجيران. سنة 1962م شكلت بداية للجزائر المستقلة التي حاولت ان تساير مبادئها ، وتحقق جملة الاهداف التي ناضل من اجلها ابنائها خاصة في الجانب المتعلق بالتأكيد على انتمائها الى الجماعة الدولية. ونتيجة للظروف الصعبة ولوجود اولويات اخرى لم تول الجزائر في البداية الاهتمام اللازم بالشأن التراثي ، وهذا شيء طبيعي بالنظر الى السياق العالمي ، ونقص مقاربات تعنى بالتراث حتى في العوالم التي كانت مستقرة سياسيا وتنعم برخاء نسبي . فأتت الميزانيات الخاصة بالثقافة ضعيفة ولايمكن ان تلبي بأي حال من الاحوال الهموم الثقافية التي ترهق جزائر الاستقلال ، رغم هذا حاول النظام الجزائري في تلك الفترة ان يضمن تماشيه وسيرورة الجماعة السياسية الدولية فانضم الى الاعلان العالمي لحقوق الانسان سنة 1963م ، سنة 1974م شهدت بداية الاهتمام القانوني للجزائر بالتراث من خلال امضاء الاتفاقية المتعلقة بالاجراءات الواجب اتخاذها لمنع استيراد وتصدير وتحويل الملكية الغير شرعية للمقتنيات الثقافية، في نفس السنة امضاء اتفاقية اخرى مرتبطة بحماية التراث العالمي ، الثقافي والطبيعي.

وجبت الاشارة الى ان هذه السنوات شهدت زيادة الاهتمام العالمي بحماية التراث بشتى انواعه سواء الثقافي او الطبيعي، هذا الاهتمام كان مدفوعا بالاستقرار السياسي وسنوات من البذخ الاقتصادي الذي شهدته اوروبا الغربية في فترة السبعينات من القرن الماضي (Giovannoni, 1998, p. 56) سنة 1976م شاركت الجزائر في اعداد الميثاق الثقافي الافريقي ، ليعقبها اعلان مكسيكو

الخاص بالسياسات الثقافية سنة 1982م .لتأتي سنة 1989م وتشارك الجزائر في صياغة التوصيات المتعلقة بالحفاظ على الثقافات التقليدية والشعبية خاصة وان السياق العالمي في تلك الفترة ميزه تهاوي النظام الشيوعي وبروز عالم احادي القطب حاول عرابوه عولمة الثقافات العالمية والقضاء على الخصوصيات ، الأمر الذي جعل النخب الثقافية للعالم تسابق الزمن لضمان حد ادنى من اجماع عالمي لحماية هذه الخصوصية. وستترجم هذه المحاولات بامضاء اتفاقية صون التراث اللامادي سنة 2004م التي شكلت نقلة نوعية في التفكير التراثي للجماعة الدولية.

فالتراث لم يعد يحوز الفضاء المادي فقط بل يشمل جل الممارسات والتصورات، المهارات ، المعارف التي تمارسها الجماعات ويهددها الزوال. قلنا ان هذه الاتفاقية امضت عليها الجزائر ، وقدمت ملف كامل لما يعرف "برقصة اهليل" للاعتراف الدولي بها كممارسة ثقافية انسانية لسكان الجنوب الغربي الجزائري حيث منطقة قورارة. وكمقارنة بين السياسة التراثية للجزائر فيما مضى وافي الفترة الآنية (على الاقل منذ عشرون سنة) يدرك الباحث حجم المجهودات التي بذلت في سبيل المحافظة على التراث الجزائري (على الاقل في اطار النصوص والقوانين) خاصة مع التحديات الدولية التي تواجه الخصوصية الثقافية للجماعات الانسانية ،وتشابك التراث مع الصراعات والاستراتيجيات الدولية الخاصة بتوسيع النفوذ ، واثبات الذات. ان منطق السياسة الدولية في الحاضر يقتضي عدم اهمال اي عنصر من العناصر التي تساهم في تشكيل هوية الامة ، لان جوهر الدولة ليس فقط حاضرها بل هي محصلة للتفاعل الانساني في الازمنة المختلفة.

3- جرد التـــــراث المـادي فـــي منطقـــة الاوراس :

يشغل الاوراس حيزا كبيرا في منطقة الشمال الشرقي للجزائر ويشمل ولايات خنشلة ، باتنة ، ام البواقي ، تبسة ، شمال بسكرة ، تسكنه الجماعة الامازيغية بمتغيرها الشاوي. تاريخيا مرت منطقة الاوراس بتغيرات عديدة كان لها دور في خلق تنوع ثقافي رهيب ، يترجم آنيا بالعناصر المختلفة للثقافة المادية سواء على مستوى المعمار ، المدن التاريخية ، الاضرحة او تحف تاريخية اخرى والتي ماتزال شاهدة على الغنى وعلى التفاعل الانساني الكبير الذي شهدته المنطقة في مراحلها الزمنية المختلفة . ان ماأسميناه "بجرد التراث المادي في منطقة الاوراس" سيكون بسيطا ومحاولة للاستشهاد فقط بتنوع التراث المادي في المنطقة وغناها بالمعالم التاريخية في كامل الحقب الزمنية . وجبت الاشارة والتنبيه الى طرق البحث البدائية خاصة للمواقع الاثرية للبعثات الفرنسية في العهد الاستعماري والتي اتلفت الكثير من الدلائل " حيث كانت الآثار تحت سيطرة هيئة المهندسين المعماريين الذين

باشروا التنقيب على اساس التحري الذي قام به بعض المستكشفين الهواة والعسكريين اثناء حملاتهم الاستكشافية مباشرة بعد احتلالهم للجزائر ") يسين(46 .p ,2013 ,: مساهمة المسح الاثري في الحفاظ على التراث . لذا اتلفت الكثير من التفاصيل التي يمكن ان تضيف الكثير للدراسات التراثية في الجزائر . وعلى العموم سنحاول جرد اهم العناصر الثقافية للتراث المادي في منطقة الاوراس بدون منطق ترتيبي او تصنيفي واضح وهذا بسبب تساوي الاهمية لكل المكونات التراثية للاوراس ، وسنشرع بالقطع الاثرية التي وضعتها الجزائر على امل تصنيفها من طرف اليونيسكو كجزء من التراث العالمي ، نقصد هنا "الحضيرة الوطنية الثقافية والطبيعية للاوراس" التي سجلت في القائمة الاستشارية لليونيسكو سنة 2002م ، تشتمل على 22 بلدية بين ولاية باتنة وولاية بسكرة ، وهي تمتد بين الواد الابيض او مايعرف محليا "بايغزر املال" ووادي عبدي على مسافة 100كلم عرضا، تتنوع بين ماهو طبيعي كنظام الواحات وتنوع بيئي بين مناطق التل والصحراء ، دون نسيان غنى العمران الذي يؤكد على قدم الانسان في هذه المنطقة ، كشرفات غوفي التي قاومت الزمن وابت الا ان تكون شاهدة على عظم الانسان وعبقريته في ايجاد الحلول لمشاكله اليومية ، وقدرته العجيبة على التكيف مع جل ظروف الحياة المختلفة . "ايقليعين" او "القلاع" تجلي تراثي آخر من تجليات الاوراس الثقافي ، بنيت في فترات زمنية مختلفة بغرض مقاومة الندرة والتدبير القبلي للمنتوجات الواسعة الاستهلاك ، انها بمثابة مخازن تلبي حاجيات السكان وقت الحاجة ، صنفتها فرنسا كتراث مادي سنة 1928م ، واعادت الجزائر تصنيفها سنة 1964م ، يقدر عددها حسب الباحث في التراث الامازيغي بشير باردو بحوالي 106 قلعة ، توجد اغلبيتها في الاوراس الغربي ، وهو يرى ان القلاع بهذا الشكل موجودة فقط في منطقة الاوراس ، ويعتبرها بمثابة بنك في العصر الحالي لانها مخازن ادخار يتم فيها تخزين التمور والذهب وكل ماهو مجفف ."ضريح امدغاسن" قطعة تراثية اخرى تستحق الصيانة والمحافظة عليها ، تقع في منطقة "بومية" القريبة من مدينة الشمرة في الشمال الشرقي لمدينة باتنة ، وهي منطقة سهلية لاتحتوي على مرتفعات واضحة الا سلسلتين جبليتين "عازم " و "تافروت" ، وهذا الضريح جزء لايتجزء من مقبرة تتربع على مساحة قدرها 2كلم2 (عيشوش، 2012، الصفحات 35-36)ضريح امدغاسن والضريح الملكي الموريطاني.

لو نعود الى المصادر التاريخية نجد بأن الاغريق والرومان لم يتعرضوا له في كتاباتهم ، فقط الرحالة والجغرافيون المسلمون فيما بعد هم الذين ذكروه في كتاباتهم ، بدءا بالبكري الذي وصفه بقبر مادغوس ,(Albakri, 1913, p. 107)في الفترة الحديثة عهد امر اكتشاف اسراره التاريخية الى علماء الاثار والمؤرخين الفرنسيين من بينهم : الجنرال كربوشا سنة 1850م ، بيكر 1854م ، المؤرخ والاركيولوجي "كامبس" والذي يعود له الفضل في تحديد العمر الزمني للضريح والفترة التي يعود اليها

حيث ارجعه الى ملوك الماسيل المنحدرين من الاوراس للقرن 4و3 -(G.Camps, 1973, pp. 470 517)... سنة 2002م اقترحته السلطات الجزائرية على منظمة اليونيسكو لكي يصبح كجزء من التراث العالمي . قطعة تراثية اخرى تلعب دورا في الاقتصاد الاسري في منطقة الاوراس ، يتعلق الامر "بزربية بابار" او "زربية النمامشة" الذي ذاع صيتها خارج الوطن خاصة في المعارض الدولية ، انها ترمز الى استمرارية الماضي في الحاضر ، كما انها تعطي لمحة عن دور التراث في ضمان قدرا من الحاجات اليومية . برزت هذه الحرفة في التسعينات من القرن الماضي ، رغم ان ممارستها ترتبط بالانسان اللموشي منذ القدم . عندما نذكر النمامشة فاننا نقصد تلك القبيلة التي تمتد من منطقة خنشلة شرقا الى تبسة ، تنقسم الى ثلاثة بطون "لعلاونة" و "البرارشة" في منطقة تبسة و "اولادرشاش" في منطقة خنشلة في ثلاث بلديات "زوي" "تازقاغت" و بابار" . حرفة الزربية " تمارس في المنطقة منذ القدم ، وهي ليست حكرا على النساء بل حتى الرجال يمارسونها ، انطلاقا من التكافل الذي يميز الاسرة اللموشية خاصة وان ظروف الحياة كانت جدصعبة ، اساسها الترحال صيفا الى منطقة الشمال وشتاء الى منطقة الجنوب ، يقوم اقتصادها على رعي الماشية مما انعكس على طبيعة الحرف التي تركزت على الصوف وبقت تركة تتوارثها الاجيال منذ الازل . اللباس الاوراسي تراث مادي آخر يستحق الصون والعناية، هو امتداد للباس الامازيغي في كامل شمال افريقيا، ورغم ذلك فله خصائص ارتبطت بالبيئة وبالتطور الذي مرت به الجماعة الاوراسية خاصة بالتفرد في الالوان حيث الاسود والاصفر يطغيان على بقية الالوان، وكذلك "بالملحفة" التي تتشكل في غالب الاحيان من قطعة واحدة تخاط عند الصدر، تلبس مع الحلي الامازيغية التي تكون من الفضة مثل الجبين ، الخلخال ، المقايس ...الخ . انها اللباس التقليدي للمرأة الاوراسية خاصة في زمن الافراح، وقد عادت الملحفة لتثير المرأة الاوراسية بعدما غابت او غيبت في الفترة السابقة، خاصة مع التعديلات التي ادخلت عليها لتتماشى وروح العصر المتميز بالسرعة وعدم الثبات. حمام الصالحين الموجود في ولاية خنشلة جزء مهم من التراث الثقافي المادي للمنطقة، يبعد حوالي 7 كلم غرب مدينة خنشلة، وهو في الاصل حمام روماني انشيء قبل حوالي 2000سنة من الآن (حوالي 69 م) ، يتميز هذا الحمام بمياهه التي تحمل طبيعة استشفائية ، تتوسطه غابة هائلة تضم جل انواع النباتات والاشجار التي تزخر بها المنطقة ،حيث تشكل فسيفساء طبيعية وبيئية يؤهلها لان تلعب دورا ثقافيا وسياحيا اذا رسمت لها استراتيجية تتناسب وامكانياتها . ان هذه القائمة التي اشرنا اليها هي جزء يسير من موروث ثقافي مادي في كامل منطقة الاوراس، ينتظر ارادة واستراتيجية لتثمينه ليساهم في الاقتصاد والدخل الوطني ، لننتقل بالتالي من النظرية السلبية الغير مبالية بالتراث ،الى نظرة براغماتية ترى في التراث مصدرا لتطوير المشاريع الاقتصادية.

4- الجماعة المحلية والتراث :

يرتبط التراث بشكل رئيس بالجماعات الانسانية، فهي التي تضفي شرعيتها على التركة التراثية وتصبغها بصبغتها الخاصة ، خاصة مع السلطة التي تملكها في التسمية ، الترتيب والتوصيف . انها تعمل باعتبارها الحاضنة لجل العناصر الثقافية والهوياتية عن طريق العمليات الذهنية المختلفة التي لها مسار خاص في المخيال المرتبط بالجماعة. نتكلم هنا بصورة واضحة عن تلك التمثلات التي تتخمر في الذهن البشري حول شيء ما ، وانطلاقا منها تكون احكامنا ، وطريقة تصرفنا اتجاه كل القضايا المتعلقة به.

حاولت المقاربات العلمية للتراث الاحاطة بهذا المفهوم من جوانبه المختلفة ، والفضاءات التي يدور في فلكها. واذا كان اهتمام البعض منصب حول التراث كشيء مادي منعزل عن بيئة المنشأ ، فان البغض الاخر" نظروا اليه كمسار او كبناء اجتماعي حامل لدلالات رمزية منتجة انطلاقا من الفاعلين الاجتماعيين الحاملين للقيم التراثية ". وتلعب السياحة هنا دورا رئيسا في تأكيد تمثلات الجماعات للميدان التراثي من خلال الترسانة الاعلامية القصدية منها كالدليل السياحي ، النشاطات التوعوية ، مخططات...الخ او الغير قصدية كالصحف ، الاعلانات ...الخ . وبتتبع علاقة الجماعة الاوراسية بالتراث نصطدم بغياب وسكوت المصادر المختلفة عن التمثلات التي تنظر بها الجماعة الى قيمها التراثية ، لذا حاولنا استقراء الحاضر والاعتماد على مقابلات مع الفاعلين الاجتماعيين الذين يشكلون جسم الجماعة ، فكانت اجاباتهم كلها تتعارض مع المفهوم العام للتراث ، والازيد من ذلك ربط التراث مباشرة بالحقل الثقافي الذي يعتبر بالنسبة لغالبية الفاعلين "ميوكلش الخبز" ، او بمعنى اخر "ان التراث شكل من اشكال الترف الفكري الذي لافائدة من ورائه ، على الاقل بالنسبة للانسان البسيط " .

ان هذا يحيلنا الى المعاني القريبة من كلمة تراث والمرتبطة بالحقول الثقافية التي نشأت في سياق النهضة الاوروبية. انها مرتبطة باعمال الذهن ، وهي قريبة من العاطفة والخيال اللتان نظر اليهما بازدراء باعتبارهما مناقضان للعقل وحقائقه المتعالية. كما انهما منافيان للواقع وللهموم اليومية للافراد. وبالتالي فكل مايتعلق بميادين الثقافة هو حتما فعل لايهم الاناس البسطاء ، فهو ترف نخبة وانشغال يهم فقط الطبقة الارستقراطية التي تجاوزت احتياجاتها الشأن اليومي. واذاكان العالم الغربي قد استطاع ان يتجاوز هذه الصورة المجزأة للشأن الثقافي ، ويضعه في صلب الهموم اليومية للانسان ، فان الحال في الجزائر مختلف كليا ،فالمخيال الجمعي مازال ينظر الى الثقافة

والمجالات المرتبطة بها باعتبارها مقابلة للواقع وللمصلحة الآنية المباشرة . والتمثلات تتجاوز الحقل الثقافي الى العاملين فيه ، فالمثقف ورجل الثقافة هم عادة خارج منطق الفائدة ، والأزيد من ذلك هم عالة على المجتمع الاقتصادي ، او بقول احد المبحوثين "راهم حاجة زايدة". وسيتسع هذا الاستعمال ليشمل كل الفاعلين الذين لهم علاقة بالثقافة بما فيهم الاشخاص الذين يشتغلون في ميدان التراث ، مما انعكس سلبا على القيمة الفعلية ، وعلى مدى تفاعل الانسان الأوراسي مع التمظهرات المختلفة للتراث. وبالتالي فالاهمال الذي تتعرض له جل الاشكال التراثية في المنطقة ، ماهو الا انعكاس للتمثلات المشكلة لمخيال الجماعة المحلية. ان غالبية المبحوثين الذين شملهم البحث نظروا بالسلب الى المعالم التراثية ، والى القطع التي تشكل المخزون الرئيسي لعالم التراث سواء في شكله المادي او اللامادي.

5- العمل على تغيير التمثلات Les Représentations :

شغل مصطلح التمثلات الاجتماعية حيزا واسعا من اهتمام علماء الإنسانيات والمجتمع بدءا" **باميل دوركايم**" ووصولا إلى الفرنسي "**موسكوفيتشي**" الذي يعتبر كأول عالم استخدم هذا المصطلح للدلالة على تلك الصور الذهنية ذات الطابع الجمعي والاجتماعي القابلة للمراجعة والتجديد والرسكلة وإعادة البناء من طرف المجموعات التي تكون المجتمع الواحد (Moscovici, 1976, p. 49) ". ان تشكلها مرتبط في الاساس بالانساق الثقافية التي تكون لها القدرة على رسم هذه الصور ، واعطائها الشكل الذي تريد . ورغم هذه الصفة التي قد تبدو جبرية الا انها تتميز بالمرونة والقابلية للتحيين والمراجعة من طرف الجماعات البشرية ، خاصة مع تطور الاستراتيجيات التي تأخذ الجوانب الذهنية بعين الاعتبار. ان الصور التي تشكلت حول التراث في الجزائر ساهمت فيها الى حد بعيد الانساق الثقافية (من لغة ودين ورموز وايديولوجيا ...) ، مدعومة بوسائل اعلام تماهت وغاية هذه الانساق. ومادام العصر الذي نعيش فيه هو عصر اعلام بامتياز ، وجب علينا استغلالها لتغيير هذه التمثلات وفق مايتناسب والنظرة البراغماتية النفعية . ان الاعتماد على الصورة انطلاقا من وسائط التواصل الاجتماعي له قدرة رهيبة على زعزعة المخيال الجمعي، واعادة تشكيله وفق استراتيجية اقتصادية نفعية، خاصة ان ميزة هذه الوسائط هو النفاذ الى قلب المجتمعات، فالتركيز على الجوانب الاقتصادية للتراث وعلاقتها بالشأن والحياة اليومية للانسان ، من شأنه ان يساهم في بعث القطاع ووضعه في السكة الاقتصادية الصحيحة . كما ان التشابك والانفتاح على بعض الميادين المتعلقة بالتراث كالسياحة والتجارة التي لها علاقة مباشرة بالمعيش اليومي سيؤدي الى تغيير هذه التمثلات ومن ثم تثمين التراث وجعله يحضى بقيمة مضافة .

خاتمة :

نستنتج من ما سبق ان الواقع التراثي في منطقة الأوراس بصورة خاصة والجزائر بصورة عامة مرتبط بجملة التمثلات والصور التي شكلت المخيال الجمعي على مدى قرون انطلاقا من الانساق الثقافية المختلفة والتي حصرت كل المفاهيم القريبة من الثقافة بترف نخبوي يتسامى عن المعيش اليومي للأناس البسطاء ، لذا قوبل باللامبالاة والاهمال ، على خلاف الغرب الذي استطاع ادماج الشأن الثقافي في العجلة الاقتصادية والحياتية للمجتمع. ان الانتقال من المقاربة النخبوية للتراث الى المقاربة النفعية البراغماتية يقتضي استراتيجية شاملة متوسطة وبعيدة المدى تكون وسائط التواصل الاجتماعي اهم اركانه ، بتكثيف الصور التي تركز على الفائدة ، فالعمل على اعادة تشكيل التمثلات هو الخطوة الضرورية لتثمين التراث وجعله يساهم في الاقتصاد ، وهذا لن يتحقق الا بسياسة ترعاها الدولة عبر الاهتمام بتكوين الرأسمال البشري الذي له القدرة على فهم التحولات السريعة التي يعرفها العالم في مجالاته المختلفة. فعصر الذكاء الاصطناعي يقتضي طاقة جيل مستوعب للتغيرات وللتشابك الحاصل في عالم اليوم.

قائمة المصادر والمراجع :

,القرآن الكريم ,سورة الفجر, (الآية 19)

ابن منظور. (20011992). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

الطبري .(). جامع البيان عن تأويل آي القرآن , ط1 , الجزء 24, القاهرة ,هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان.

جوني.ح(2019,افريل), تدمير الأعيان الثقافية او احتلال التاريخ , الانساني , ص10.

عيشوش . ح ,(2012) ,مقارنة بين ضريح امدغاسن والضريح الملكي الموريطاني من خلال الأبحاث والدراسات , حوليات التاريخ والجغرافيا , ص 35-36.

حميد حاجي يسين ورابح فورالي(2013) , مساهمة المسح الأثري في الحفاظ على التراث المادي في شمال وجنوب جبال الأوراس. *Revue d'études archéologiques , 11* (1), p. 46 ..

ميشال ايزار وبيار بونت. (2011). *معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا*. (د.مصباح عبد الصمد، المترجمون) بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

A.riegal. (1984). Le culte moderne des monuments. Paris: Le seuil.

Albakri. (1913). Description de l'Afrique septentrionale. Alger.

André Chastel, J. -p. (1994). La notion de patrimoine. Paris: Liana levi.

Bady, p. (1994). Les monuments francais. Paris: Presse universitaires de france.

Candau. (2005). Anthropologie de la mémoire. Paris: Armand Colin.

D.Fabre , A.Daniel . (2010). Les monuments sont habités. Paris: Éditions de la Maison des sciences de l'homme .

D.Poulot. (2006). Une histoire du patrimoine en Occident. Paris: PUF.

Denis, V. (1998). La mise en valeur du patrimoine économique industriel. Paris: éditions du CNRS.

E littré de L'académie francaise. (1873). Dictionnaire de la langue francaise (Vol. 1). paris: Librairie Hachette et C.

G.Camps. (1973). Nouvelles observations sur l'architecture et l'âge du Medracen. CRAI.

Giovannoni, G. (1998). L'urbanisme face aux villes anciennes. Paris: Seuil.

Moscovici. (1976). Psychanalyse ,Son Image Et Son Public. Paris: Presse Universitaire De France.

Tornatore, J. -l. (2010, septembre 05). L'ésprit de patrimoine. Revue d'éthnologie de l'Europe (55), pp. 106-127.